

معالم الوعي السني في المشروع الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس *Some of the milestones of Law consciousness in the reform project of Ibn Badis*

أ.د / بدر الدين زواقة

مخبر الفقه الحضاري ومقاصد الشريعة

جامعة باتنة 1 (الجزائر)

badreddine.zaouaga@univ-batna.dz

ط.د / مصطفى مخلوف *

مخبر الفقه الحضاري ومقاصد الشريعة

جامعة باتنة 1 (الجزائر)

mostefa.makhlouf@univ-batna.dz

تاريخ النشر: 2023/03/16

تاريخ القبول: 2022/11/01

تاريخ الاستلام: 2022/10/04

ملخص:

هذه الدراسة هي محاولة للكشف عن بعض معالم الوعي السني في المشروع الإصلاحي عند عبد الحميد بن باديس بصفته أحد رواد حركة التجديد الحضاري الحديث. معتمدا في ذلك على المنهج الوصفي والتحليلي، وقد جاءت الدراسة في ثلاثة مباحث: تطرقت في أولها إلى بيان مفهوم الوعي السني وعلاقته بالإصلاح، أما المبحث الثاني فبينت فيه معالم السنن الإلهية في فكر ابن باديس، وتناولت في المبحث الثالث تجليات تعامل ابن باديس مع السنن الإلهية وإعمالها في مشروعه الإصلاحي، ليخلص البحث بخاتمة عرضت فيها نتائج الدراسة، أهمها: أن السنن الإلهية كان لها ظهور متميز في المشروع الإصلاحي الباديسي تنظيرا وممارسة، وأن استحضار هذا المنهج الإصلاحي قمين بإعادة بعثه وتفعيله في عمليات الإصلاح الحديثة للمجتمع والأمة، وأن فقه السنن الإلهية في الإصلاح ضرورة منهجية لتوجيه وترشيد مشاريع الإصلاح وبعث فاعليتها الحضارية.

الكلمات المفتاحية: السنن الإلهية؛ الإصلاح؛ عبد الحميد بن باديس.

Abstract

This study is an attempt to uncover some of the milestones of Law consciousness in the reform project of Ibn Badis being one of the pioneers of the modern civilizational renewal movement. Relying on the descriptive and analytical approach, the study came in three sections:

In the first section I explained the concept of law consciousness and its relation with the reform. The second I showed the features of the divine laws in the thought of Ibn Badis ; while the third section showed Ibn Badis, dealings with the divine law and its implementation in his reform project.

The study's results are the following : divine laws had a distinctive appearance in Ibn Badis's reform project both theoretically and practically, and that the invocation of this reform approach was worth reviving and activating in the modern reform processes of the society and the nation, and that divine laws in the reform is a systematic necessity to guide and rationalize reform projects and to revive their civilizational effectiveness.

Keywords: Divine Laws; Reform; Abd el-Hamid ibn Badis.

* المؤلف المراسل.

1. مقدمة

إن المتدبر والمتمعن في آيات الله تعالى في الكتاب المسطور (الوحي) وفي الكتاب المنظور (الكون) يجد أن لله تعالى في خلقه لنظام الكون، ونظام المجتمع، سنن وقوانين ونواميس، لها صفة العموم والشمول والاطراد، وقد بين سبحانه وتعالى بأن هذه السنن مترابطة يخدم بعضها بعضا بشكل مطرد ثابت مستمر لا يتبدل ولا يتغير ولا يتحول، قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر:43)، ويقول سبحانه وتعالى: ﴿سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾ (الإسراء:77).

وعمومية هذه السنن والقوانين وشموليتهما وثباتها واطرادها فيه دعوة إلى البحث عنها لاكتشافها وتتبعها واستيعابها وحسن التعامل معها، وتسخيرها، ثم الاستفادة منها في مختلف مجالات الحياة، لتحقيق نهضة الأمة ومباشرة عملية بناء حضارتها، باعتبارها مداخل أساسية للإصلاح والتغيير الاجتماعي والحضاري.

ولقد حاول العديد من رواد الإصلاح والتجديد الحضاري استيعاب هذه السنن وتسخيرها في مشاريعهم الإصلاحية، مستندين في ذلك ومسترشدين بنصوص الوحي التي تدعو إلى السير في الأرض والتدبر في أحوال المجتمعات نهوضا وسقوطا، عزة وذلة بقدر امتثالها أو ابتعادها عن سنن الله ونواميسه، ومهتدين بسنة وسيرة النبي ﷺ وصحبه رضوان الله تعالى عليهم الذين فقهوا هذه السنن الإلهية وكانت الدعوة الإسلامية في بدايتها مبنية وفق منهج رباني يحيا على سبيل السنن، ويتصرف على هداياتها.

ويعد رائد النهضة الجزائرية الشيخ عبد الحميد بن باديس من أبرز رواد ورموز التجديد الحضاري الذي ترك لنا رصيذا فكريا وعلميا كبيرا وتجربة فذة من خلال كتاباته المتنوعة ومحاضراته المختلفة ومنهجيته الإصلاحية للواقع الاجتماعي التي تجعل من دراستنا لمكانة الوعي السنني في مشروعه الإصلاحى ضرورة بحثية للمهتمين بالفقه السنني في مناهج الإصلاح والتغيير، وذلك لفهم العلاقة التي تربط بينهما، وكيف تؤثر على نتائج وأهداف الإصلاح والتغيير إيجابا أو سلبا.

بناء على ذلك سأحاول من خلال هذه الدراسة استقراء بعض ما كتبه ابن باديس، خاصة من خلال كتاب الآثار الذي جمعه الدكتور عمار طالي لاستنباط مركزية الوعي والفقه السنني في المشروع الإصلاحى الباديسي.

وانطلاقا مما سبق نطرح الإشكالية المركزية التالية: ما هي معالم الوعي السنني في المشروع الإصلاحى عند عبد الحميد بن باديس؟

وتحت هذه الإشكالية تتفرع الأسئلة الفرعية التالية:

- ما هو مفهوم الوعي السنني وعلاقته بالإصلاح والتغيير؟
- ما مكانة البعد السنني في فكر ابن باديس؟
- كيف تعامل ابن باديس مع السنن الإلهية وكيف أعملها وسخرها في مشروعه ومنهجه الإصلاحى؟

وإجابة على هذه التساؤلات كان الهدف من هذه الدراسة هو
أ- إبراز مكانة الوعي السنني في عملية الإصلاح والتغيير.
ب- الكشف عن مكانة الوعي السنني في فكر ابن باديس.
ت- الكشف عن تجليات تعامل ابن باديس مع السنن الإلهية وإعمالها وممارستها في مشروعه
الإصلاحي.

ث- المساهمة في نشر الوعي السنني والثقافة السننية في التغيير والإصلاح.
ويكتسي موضوع الوعي وفقه السنن الإلهية أهمية بالغة في ترشيد العمل الإصلاحي والسيرورة به نحو
تحقيق الأهداف المنشودة، وبالإطلاع على جهود وتجارب رواد التجديد (ابن باديس أنموذجا) ومنهجهم
السنني يفيد كثيرا في تحقيق الثقافة السننية ويوفر جهدا كبيرا لحركات الإصلاح في جهودهم التغييرية
نحو تحقيق النهضة الحضارية الشاملة، استفادة من هذه التجارب فيما أصابت فيه وفيما أخطأت فيه.
ولأجل السير المنهجي للإجابة عن إشكالية الدراسة انتهجت المنهج الوصفي التحليلي مستندا على المنهج
الاستقرائي في استقراء بعض مواقف ابن باديس من قضايا الإصلاح والتغيير، ضمن خطة تتضمن مقدمة
وثلاث مباحث وخاتمة

2- مفهوم الوعي السنني وعلاقته بالإصلاح

2-1 مفهوم السنن

– السنن في اللغة:

إذا بحثنا في الدلالة المعجمية لكلمة "السنة" نجد معناها في اللغة العربية مشتق من الفعل سنّ بفتح
السين وتشديد النون، أو من سنن، على اختلاف بين أهل اللغة هل هي اسم جامد أو مشتق؟ وقد رجح
الإمام محمد الطاهر بن عاشور (ت: 1393هـ/1973م) في تفسيره على أن السنة اسم مصدر حيث قال:
والجاري على السنة المفسرين والمعرّبين: أن السنة اسم مصدر سن، ولم يذكروا لفعل سن مصدرا
قياسيا¹

وترجع في معناها على العموم في اللغة إلى معنى الطريقة والعادة المطردة وكثير من مشتقات الجذر (س
ن) تدور داخل إطار هذا المعنى² من مثل السيرة والإمام المتبّع والشرعية.
يقول ابن الأنباري (ت: 328هـ): "والسنة، معناها في اللغة: الطريقة. وهي مأخوذة من "السَّنَن"، وهو
الطريق"³

ونجد الاتفاق بين ما جاء في لسان العرب لابن منظور (ت: 711هـ)⁴ وتاج العروس للزبيدي⁵ حيث ذكرا

¹ - ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير ج4، ص96.

² - عيساوي عادل بن بوزيد: فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري ص26.

³ - الأنباري، الزاهر في معاني كلمات الناس، ص352.

⁴ - ابن منظور، لسان العرب ج6، ص399-400.

السنة بمعنى: السيرة حسنة كانت او قبيحة.

وقيل الأصل في معنى السنة الجريان والاطراد وما يتفرع عنها من معاني يدور في حقلها الدلالي. ويذهب ابن فارس (ت: 395) إلى أن هذا المعنى (الجريان والاطراد) هو أصل كلمة سنة او سنن حيث يقول: "السين والنون أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة، والأصل قولهم سَنَنْتُ الماء على وجهي أسنُّهُ سنًّا، إذا أرسلته إرسالًا، ثم اشتق منه رجل مسنون الوجه، كان اللحم قد سن على وجهه، والحمأ المسنون من ذلك، كأنه قد صب صبا.. ومما اشتق منه السنة، وهي السيرة، وسنة رسول الله عليه السلام: سيرته.... وإنما سميت بذلك لأنها تجري جريا"¹

أما المركب الإضافي سنة الله في معاجم اللغة فمعناه حكم الله وأمره ونهيه، جاء في لسان العرب: "وسُنَّةُ الله: أحكامه وأمره ونهيه؛ هَذِهِ عَنِ اللَّحْيَانِي². وَسَنَّا اللهَ لِلنَّاسِ: بَيَّنَّاها. وَسَنَّ اللهُ سُنَّةً أَيْ بَيَّنَّ طَرِيقًا قَوِيْمًا³. وفي تهذيب اللغة للأزهري: "وَيُقَالُ: هَذِهِ سُنَّةُ الله، أَيْ: حُكْمُهُ وأمره ونهيه"⁴. وسنة الله عز وجل: قد تقال لطريقة حكمته وطريقة طاعته"⁵

السنن الإلهية في الاصطلاح:

وتختلف الدلالة الاصطلاحية للسنن حسب المجال المدروسة فيه، واختلاف الحقول والتخصصات والمباحث التي تتصل بها، كما هو الحال في مفهومها عند المحدثين والأصوليين والفقهاء، وأقتصر في بيان الدلالة الاصطلاحية للسنن هنا على مجال هذه الدراسة، السنن في بعدها الحضاري والتاريخي الهادف إلى توظيفها في حركة النهضة الحضارية للأمة على جميع مستوياتها.

- تعريف محمد عبده: بأنها الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ويعبر عنا قوم بالقوانين⁶.
- تعريف الدكتور أحمد كنعان: "مجموعة القوانين التي سنها الله عز وجل لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعا، على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها"⁷.
- تعريف الطيب برغوث: ""الأنظمة والنواميس والقوانين الثابتة، التي أودعها الله تعالى في كل مفردة كونية لكي تؤدي وظيفتها الذاتية والكونية بانتظام"⁸.
- تعريف رشيد كهوس: السنن الإلهية هي إرادة الله الكونية، وأمره الشرعي، وفعله المطلق، وكلماته

⁵- الزبيدي، تاج العروس، ج 35، ص 230-232

¹ - ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج 3، ص 60، 61.

² - أبو الحسن علي بن المبارك اللحياني الهذلي (ت: 220هـ) هو نحووي من الكوفة، ومن أئمة نحاة الطبقة الثالثة من المدرسة الكوفية في النحو.

³ - ابن منظور، لسان العرب، ج 6، مرجع سابق، ص 399

⁴ - الأزهري، تهذيب اللغة، ج 12، ص 213.

⁵ - الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني، تاج العروس، مرجع سابق، ج 35، ص 231.

⁶ - عبده، محمد: الإسلام دين العلم والمدنية، ص 83.

⁷ - كنعان، أحمد: أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، ص 52.

⁸ - برغوث الطيب: مقدمة في المنظور السنني لدراسة السيرة النبوية، بحوث المؤتمر العالمي الأول للباحثين في السيرة النبوية، ص 861.

النامات، ووعوده الحقّة، وحكمه في آفاق الكون وتسلسل التاريخ، الجارية بالعباد من المعاش إلى المعاد¹.
- تعريف طه جابر العلواني: السنن الإلهية: هي تلك القوانين الإلهية في الكون والنفس والمجتمع التي لا تبديل ولا تغيير ولا تحويل لها.²

من خلال تعريفات علماء الفكر الإسلامي والفقه الحضاري السابقة وغيرها نجد تنوعاً في التعاريف للسنن الإلهية وبيان دلالتها الاصطلاحية، فنجد أنها تتميز في دلالاتها وسياقها بحسب أبعادها المتنوعة، فنجد من يتناول تعريف أو مفهوم السنن الإلهية حسب بعدها المرجعي والمصدري الرباني، ونجد من يتناوله حسب البعد الحضاري المنهجي التسخيري، وهناك من يتناوله حسب خصائص السنن الإلهية وسماتها، كما نجد اتجاه آخر يركز على البعد القانوني للسنن والنظام الإلهي المحكم، ومنهم من تناولها بوصفها المنهج والطريقة والسيرة المتبعة، أو بوصفها المثال والنموذج المتبع.³

2-2 مفهوم الوعي السنني: هو العلم والإدراك والفهم الحقيقي للقوانين والنواميس والقواعد والأنظمة الثابتة والمطرودة التي تحكم الكون والمجتمعات والأفراد وتحكم حركة التاريخ، لكي تؤدي وظيفتها الذاتية والكونية بانتظام، "والتي تعتبر معرفتها شرطاً أساسياً للتبصر بالعواقب، وتؤهل معرفتها إلى تسخيرها والتمكن من الإنجاز والإبداع الحضاري"⁴

2-3 مفهوم الإصلاح:

الإصلاح في اللغة: الإصلاح جذره اللغوي صلح، يقول ابن فارس: "الصاد واللام والحاء أصل واحد يدل على خلاف الفساد يقال صلح الشيء يصلح صلاحاً ويقال صلح بفتح اللام"⁵
وعند الرازي في مختار الصحاح: الصلاح ضد الفساد... والصلاح بالكسر مصدر المصالحة والاسم الصلح... والإصلاح ضد الإفساد...⁶

وفي المصباح المنير للفيومي: صلح خلاف فسد... وأصلح أتى بالصلاح وهو الخير والصواب وفي الأمر مصلحة أي خير والجمع المصالح... والصلح..التوفيق.. واصلحت بيت القوم وفقت، وتصلح القوم واصطلحوا.⁷

نلاحظ أن لفظي الصلاح والإصلاح متكاملتان ومتلازمتان، فالصلاح يكون في الذات ابتداء ثم يتعدى إلى الإصلاح للآخر أو الواقع.

ونلاحظ أيضاً أنه عند استقراء كثير من معاجم اللغة العربية خاصة القديمة منها نجدها في بيانها

¹ - كهوس، رشيد: السنن الإلهية الكونية والاجتماعية لطائف وبصائر، مجلة تدبر، ع1، ص1، 1438هـ-2016م، ص171

² - العلواني، طه جابر: إشكالية التعامل مع السنة النبوية، ص115

³ - برغوث، عبد العزيز: ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية، ص33.

⁴ - كنعان أحمد: أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، مرجع سابق، ص11.

⁵ - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، مرجع سابق ج3، ص303

⁶ - الرازي محمد بن أبي بكر: مختار الصحاح، مرجع سابق، ص238، 239.

⁷ - الفيومي أحمد بن محمد بن علي المقرئ: المصباح المنير، مرجع سابق، ص132.

للجذر اللغوي لمادة "صلح" لا تعرفه ولا تدل عليه إلا بضده. الإصلاح ضد الإفساد" وإذا بحثنا فيها عن معنى "الإفساد" ردتنا إلى "الإصلاح" بقولها "الإفساد ضد الإصلاح".¹

دلالة لفظة الإصلاح في الاستعمال القرآني:

وردت مادة (ص ل ح) في القرآن الكريم مائة وثمانين مرة (180) في اشتقاقات متنوعة، وسياقات مختلفة. ومعاني ثرية ومتعددة، ومفهوم الإصلاح في القرآن الكريم يتبع السياق الذي وردت فيه لفظة الإصلاح ومشتقاتها ولا يوجد تعريف في كنه الإصلاح، أي لا يوجد تعريف مباشر لمفهوم الإصلاح، وإنما وصف "للذين يفعلون الإصلاح، أو للأفعال التي يقومون بها، أو للعلاقات التي ينخرطون فيها..."²

الإصلاح في الاصطلاح:

الدلالة الاصطلاحية للإصلاح تتنوع وتتعدد حسب المجال أو المضامين التي تتناولها حيث منها ما يتعلق بالفرد ومنها ما يتعلق بالمجتمع ككل ومنها ما يتعلق بالأفكار والعقائد ومنها ما يتعلق بالسلوك والعادات والأخلاق والمعاملات...

والذي يعنينا في هذه الدراسة هو الإصلاح بمفهومه الشامل في إطاره المرجعي الاسلامي أي إصلاح الفساد الذي يصيب الأمة المسلمة في شتى المجالات والعودة بها إلى الطريق الذي ارتضاه لها الله تعالى وفق سنن الله في الإصلاح والنهوض.

ونجد هذه التصور لمفهوم الإصلاح في إطاره المرجعي المعيارى الشمولى وبعده الحضارى والثقافى، عند الشيخ عبد الحميد بن باديس حيث يرى أن الإصلاح: هو "رجوع المسلمين إلى عقائد الإسلام المبنية على العلم، وفضائله المبنية على القوة والرحمة، وأحكامه المبنية على العدل والإحسان، ونظمه المبنية على التعاون بين الأفراد والجماعات والتآلف والتعامل والتعاون، وأن لا فضل لأحد على أحد إلا بتقوى الله، ومن اتقى الله فهو أنفع الخلق لعباد الله".³

2 - 4 علاقة السنن الإلهية بالإصلاح

عملية الإصلاح والتغيير لن تؤتي أكلها ولن تحقق أهدافها ونتائجها إذا أهملت إعمال وتسخير السنن الإلهية في مناهجها، وهذا استنادا إلى مفهوم الإصلاح في القرآن وفي الهدي النبوي من خلا السنة السيرة. فالوحي بمصدره يقرر ويبين أن الإصلاح والتغيير يجري وفق قوانين وسنن ثابتة لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول، تبدأ من الفرد وتمر بالمجتمع لتصل إلى الأمة، منطلقها قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11).

وينبه القرآن في كثير من الآيات إلى هذه السنن وضرورة اكتشافها وتسخيرها في العمل التغييرى

¹- الجابري، محمد عابد: في نقد الحاجة إلى الإصلاح، مركز دراسات الوحدة العربية، ص 17

²- حامد، التيجاني عبد القادر: الإصلاح في القرآن: استكشاف المفهوم، وبناء النظرية، ص 13.

³- الطالبي، عمار، كتاب آثار ابن باديس، ج 3، ص 547.

والإصلاحي، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ (النساء: آية 26) ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الفتح: الآية 23)

وفي سرد القرآن الكريم لقصاص الأنبياء والمرسلين عليهم السلام، التي قال عنها (أي القصص) ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لَأُولِي الْأَلْبَابِ ...﴾ (يوسف: 111) كان للمنهج السني حضوره المتميز في عملية الإصلاح والتغيير عند هؤلاء الصفوة الذين أمر الله تعالى بالاعتداء والاهتداء بهم، ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْيِهِمْ أُقْتَدِرُ﴾ (الأنعام: الآية 90) أي: "موافقة سنتهم وسيرتهم في دعوة أقوامهم إلى الدين والصبر على أذاهم"¹

والهدي النبوي من خلال السنة الشريفة والسيرة النبوية هو الآخر يكشف لنا المنهج السني في التغيير والإصلاح الذي أثمر تأسيس المجتمع المسلم المتشعب بالثقافة السننية والذي استطاع أن يحقق النهضة الحضارية. بدأ بسنة إصلاح وتغيير ما بالأنفس، الفرد ثم المجتمع، أصلح العقائد والأفكار والتصورات والمفاهيم، منتهجا سنة التجديد وسنة التدرج وسنة الأخذ بالأسباب، وسنة التدافع، وسنة النصر.. وغيرها من السنن التي تشكل المنهج السني الذي يجب الاهتداء بمفرداته ومعامله في أي مشروع إصلاحي وتغيير يهدف إلى تحقيق النهضة الحضارية المنشودة للأمة، وقد قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب: 21)

"ولا معنى لإصلاح أو لمشروع إصلاحي لا يستحضر البعد السني، لأن فقه السنن الإلهية وسنن الإصلاح من فقه الدين، وفي الغفلة عنها تفريط في الأخذ بأسباب النجاة وإعراض عن هدي الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام".²

3 - مكانة البعد السني في فكر ابن باديس

لقد آمن ابن باديس أن الله تعالى في هذا الكون سنن وقوانين ثابتة لا تتبدل ولا تتحول تحكم الظواهر الاجتماعية والإنسانية من أخذ بها نال مبتغاه ومن تركها وأهملها فشل ولم يحقق ما يصبو إليه، يقول: "ولله سنن نافذة بمقتضى حكمته ومشيتته في ملك الأرض وسيادة الأمم يؤتي الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء من أخذ بنوع من تلك السنن بلغت وبلغ بها إلى ما قدر له من عز وذل وسعادة وشقاء وشدة ورخاء وكل محاولة لصدها عن غايتها- وهو أخذ بها- مقضي عليها بالفشل. سنة الله، ومن ذا يبدلها أو يحولها؟ ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾، ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾"³

3-1 مصادر الفكر السني عند ابن باديس:

المصدر الأساس الذي يستقي منه ابن باديس فكره السني ومنهج مشروعه الإصلاحي هو الوحي (القرآن الكريم وسنة ﷺ وسيرته في جانبها التشريعي)، "فالعبد محتاج دائماً إلى الرجوع إلى كتاب الله وما

¹ - رضا، محمد رشيد: تفسير المنار، ج6، ص 415

² - المرتضى، محمد: نظرا البعد السني في مشروع إصلاح التعليم عند ابن العربي المعافري، مجلة حقول معرفية (مجلة علمية دولية محكمة تصدر عن كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بجامعة زيان عاشور بالجلفة-الجزائر) ع01 جانفي 2020.

³ - الطالبي، عمار: كتاب آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج1، ص 356، 357.

ثبت من سنة نبيه - ﷺ - لم يهتدي إلى ما يرضي الله مما شرعه له من أحواله وأفعاله، وإلى ما يدفع عنه شهواته وينقذه من شهواته ومحتاج إلى التوسل بذلك الرجوع إليهما وذلك الإتيان لهما إلى الله - تعالى - ليفتح له أبواب المعرفة ويمد له أسباب التوفيق"¹.

فالعالم الحق في نظر ابن باديس هو الذي يتدبر ويتفكر في هذين المصدرين لاكتشاف ما فيهما من أسرار ومن سنن إلهية فيقول رحمه الله: "إن القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن، وكذلك كلام نبينا - ﷺ - المبين له، فكثير من متون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع لم تفهم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سنن الله في الكون،... والعلماء القوامون على كتاب الله وسنة رسوله لا يتلقونها بالفكر الخامد والفهم الجامد، وإنما يترقبون من سنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقهما"².

والمصدر الثاني هو التاريخ وما يحمله من آيات ودروس وعبر، "ولما كان من سنة القرآن الحكيم التنبيه على مشابهة اللاحقين من الناس للسابقين في منازعهم وأهوائهم وكثير من أحوالهم حتى كان التاريخ يعيد نفسه بإعادة ذلك منهم وجاء ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ وقوله: ﴿تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ وغيرها، لما كان هذا من سنة القرآن فتحنا هذا الباب من الصحيفة تحت عنوان: "التاريخ يعيد نفسه" لننشر فيها- ما أمكننا النشر- قصصا عن حياة رجال السنة المصلحين مع دعاة البدعة المبطلين تزيد العالم المصلح ثباتا على الحق والقارئ الصادق تبصرة في الأمر و﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾"³.

بعد ما عرفنا مصادر الفكر السنني عند ابن باديس، فما هي أهم تجليات التفكير السنني عنده؟

3 - 2 سنن التغيير والإصلاح في فكر ابن باديس

التغيير يبدأ بتغيير ما بالأنفس:

مركز الثقل في أي عمل إصلاحي تغييري هو تغيير الأنفس، انطلاقا من ضبط قناعاتها من السنن التي فطر الله الخلق عليها، كما قال تعالى: ﴿إِنْ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بَقُومَ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (سورة الرعد: الآية 11)⁴ وهذه الآية عنوان سنة إلهية مفادها أن إصلاح المجتمع وتغييره مرتبط أساسا بتغيير ما بالأنفس، "الله تعالى ربط تغيير الحال، بإرادة الإنسان، وحركته، وتغيير ما بنفسه، حيث جعل الفاعل في قوله تعالى: ﴿إِنْ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ﴾ عائدا على الله سبحانه، والفاعل في قوله تعالى: ﴿يَغْيِرُوا﴾ على الإنسان، ذلك أن من سنن الله، وقانونه في التغيير، أن يبتدئ من داخل الإنسان، ويرتبط بإرادته. ولعل هذا المعنى يتكرر في أكثر آيات التغيير، سواء في ذلك التغيير إلى الأفضل، أو الارتكاس والتغيير إلى الأسوأ"⁵.

¹ - الطالبي، عمار: كتاب آثار ابن باديس، المرجع السابق، ج 1، ص 173

² - المرجع نفسه، ج 2، ص 117.

³ - المرجع نفسه، ج 3، ص 28.

⁴ - برغوث، الطيب: منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، ص 242

⁵ - حسنة، عمر عبيد: رؤية في منهجية التغيير، ص 19

فلقد أدرك ابن باديس أن تغيير الأنفس هو أساس الإصلاح للفرد والمجتمع، وهذا هو الهدف الذي من أجله بعث الله عز وجل الرسل يقول: "فصلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع، والعناية الشرعية متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس. إما مباشرة وإما بواسطة، فما من شيء مما شرعه الله تعالى لعباده من الحق، والخير، والعدل، والإحسان، إلا وهو راجع عليها بالصلاح، وما من شيء نهى الله تعالى عنه من الباطل والشر والظلم والسوء، إلا وهو عائد عليها بالفساد، فتكميل النفس الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب وإرسال الرسل"¹

ومركز هذا التغيير للنفس إنما يتم بإصلاح معتقدها وتحريرها من الخرافات والمعتقدات الباطلة، وترسيخ الأخلاق الفاضلة، ولا يتم ذلك إلا بالعلم والإرادة، يقول ابن باديس: "صلاح القلب بمعنى النفس بالعقائد الحقّة والأخلاق الفاضلة وإنما يكونان بصحة العلم وصحة الإرادة، فإذا صلحت النفس هذا الصلاح صلح البدن كله بجريان الأعضاء كلها في الأعمال المستقيمة، وإذا فسدت النفس من ناحية العقد أو ناحية الخلق أو ناحية العلم أو ناحية إرادة فسد البدن وجرت أعمال الجوارح على غير وجه السداد"².

3-3 سنة بالأسباب والمسببات:

إيمان ابن باديس بالسنن والنواميس الإلهية هو إيمان بأن الله تعالى أقام وخلق نظام هذا الكون على أسباب تفضي إلى مسبباتها ونتائج موصولة بمقدماتها، "فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب والله خلق الأسباب والمسببات"³

وأوضح ابن باديس أن سنة الأسباب والمسببات لا تحابي أحدا مؤمنا أو كافرا من أخذ بها نال نتائجها ومن أهملها لم ينل مسبباتها يقول في هذا الشأن: "أن الأسباب الكونية التي وضعها الله تعالى في هذه الحياة وسائل لمسبباتها- موصلة- بإذن الله تعالى- من تمسك بها إلى ما جعلت وسيلة إليه. بمقتضى أمر الله وتقديره، وسننه في نظام هذه الحياة والكون. ولو كان ذلك المتمسك بها لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر ولا يصدق المرسلين. ومن مقتضى هذا أن من أهمل تلك الأسباب الكونية التقديرية الإلهية ولم يأخذ بها لم ينل مسبباتها ولو كان من المؤمنين، وهذا معلوم ومشاهد من تاريخ البشر في ماضيهم وحاضرهم"⁴.

وعلى أساس التمسك والأخذ بالأسباب أو إهمالها يرى ابن باديس أن أصناف الناس أربعة:

- 1 - مؤمن أخذ بالأسباب الدنيوية، فهذا سعيد في الدنيا والآخرة.
- 2 - ودهرئ تارك لها، فهذا شقي فيهما.
- 3 - ومؤمن تارك للأسباب، فهذا شقي في الدنيا وينجو- بعد المؤاخذه على الترك- في الآخرة.
- 4 - ودهرئ أخذ بالأسباب الدنيوية، هذا سعيد في الدنيا ويكون في الآخرة من الهالكين.⁵

¹ - الطالبي، عمار: كتاب آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج 1، ص 232

² - المرجع نفسه، ص 232.

³ - ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ج 8 ص 70

⁴ - الطالبي، عمار: كتاب آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج 1، ص 201

⁵ - المرجع السابق، ص 202

ويبين في هذا المقام أن سبب أفول المسلمين وتخلفهم وتأخرهم عن غيرهم من الأمم الكافرة ليس بسبب إيمانهم وإسلامهم -كما يروج التغريبيون- بل هو بإهمال المسلمين لسنة الأخذ بالأسباب، وأخذ أهل الملل الأخرى بأسباب التقدم " فلا يفتنن المسلمون بعد علم هذا ما يرونه من حالهم وحال من لا يدين دينهم. فإنه لم يكن تأخرهم لإيمانهم، بل بترك الأخذ بالأسباب الذي هو من ضعف إيمانهم. ولم يتقدم غيرهم بعدم إيمانهم بل بأخذهم بأسباب التقدم في الحياة. وقد علموا أنهم مضت عليهم أحقاب وهم من أهل القسم الأول بإيمانهم وأعمالهم. وما صاروا من أهل القسم الثالث إلا لما ضعف إيمانهم وساءت أعمالهم وكثر إهمالهم.. فلا لوم إذاً- إلا عليهم في كل ما يصيبهم، وربك يقضي بالحق وهو الفتاح العليم"¹.

ويؤكد مرة أخرى على هذه السنة الاجتماعية في معرض تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ (الإسراء: الآية 20)

حيث يقول: " أن أسباب الحياة وال عمران والتقدم فيهما مبذولة للخلق على السواء، وأن من تمسك بسبب بلغ- بإذن الله- إلى مسببه، سواء أكان براً أو فاجراً مؤمناً أو كافراً. وهذا الذي أفادته الآية الكريمة مشاهد في تاريخ المسلمين قديماً وحديثاً...فهذه الآية من أنجع الدواء لفتنة المسلم المتأخر بغيره، المتقدم لما فيها من بيان أن ذلك المسلم ما تأخر بسبب إسلامه، وأن غيره ما تقدم بعدم إسلامه. وأن السبب في التقدم والتأخر هو التمسك والترك للأسباب. ولو أن المسلم تمسك بها كما يأمره الإسلام، لكان- مثل سالف أيامه- سيد الأنام."²

فابن باديس وضع الأصبع على موضع الداء وهو بهذا البيان يرد على كثير من الأفكار المنهرة بالحضارة الغربية التي ظهرت في زمانه التي ترى أن سبب تخلف المسلمين هو الإسلام في حد ذاته والسبيل للتقدم واللاحق بهذه الحضارة هو مواكبتها وتبني أفكارها والأخذ بكل مقوماتها شكلاً ومضموناً وإحداث القطيعة مع الماضي والتحرر من الدين، وأمثال هؤلاء قاسم أمين الداعي إلى تحرير المرأة (من الإسلام)، وطه حسين، وأحمد لطفي السيد، وسلامة موسى وغيرهم، ويذكرهم بالتاريخ الذي ازدهرت فيه الحضارة الإسلامية لما تمسك المسلمون بأسباب التقدم التي يأمرهم بها دينهم.

ويرد في المقابل على دعاة من يحمل شعار الإسلام هو الحل دون الأخذ بسنة الأسباب في النهضة والتقدم، فسنة الله لا تحابي أحداً.

3-4 سنة الأجل والتداول والاستبدال:

يوضح ابن باديس أن لكل أمة أجل وهي سنة إلهية كونية، وأن الأمم لها أعمار مثل أعمار الأفراد تعيش في الحياة عبر أطوار ثلاثة: "الأمم كالأفراد، تمر عليها ثلاثة أطوار، طور الشباب، وطور الكهولة، وطور الهرم، فيشمل الطور الأول نشأتها إلى استجماعها قوتها ونشاطها، مستعدة للكفاح والتقدم في ميدان الحياة، ويشمل الطور الثاني ابتداء أخذها في التقدم والانتشار وسعة النفوذ وقوة السلطان إلى استكمالها قوتها وبلوغها غاية ما كان لها أن تبلغه من ذلك، بما كان فيها من مواهب وما كان لها من

¹ - المرجع نفسه، ص 202،

² - المرجع نفسه، ص 212

استعداد وما لديها من أسباب. ويشمل الطور الثالث ابتداءها في التقهقر والضعف والانحلال، إلى أن يحل بها الفناء والاضمحلال. إما بانقراضها من عالم الوجود، وإما باندراسها من عالم السيادة والاستقلال، وما من أمة إلا ويجري عليها هذا القانون العام، وإن اختلفت أطوارها في الطول والقصر كما تختلف الأعمار"¹.

ويستدل على هذه السنة الإلهية بما جاء في القرآن الكريم، حيث يقول: "هذه السنة الكونية التي أجرى الله عليها حياة الأمم في هذه الدنيا أشار إليها في كتابه العزيز في غير ما آية. فذكر أعمال الأمم وأنها مقدره محددة بأجلها في مثل قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (الأعراف: الآية 34)."²

ويبدو أن ابن باديس متأثر بنظرية ابن خلدون في الأطوار الثلاثة التي أشار إليها في "المقدمة": "الفصل الرابع عشر: في أن الدولة لها أعماراً طبيعية كما للأشخاص... فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزايد إلى سن الوقوف ثم إلى سن الرجوع"³

وعندما يبلغ المجتمع أو الدولة سن الرجوع والاضمحلال "تكون نهاية (دورة) وهجرة (حضارة) إلى بقعة أخرى، تبدأ فيها دورة جديدة، طبقاً لتركيب عضوي تاريخي جديد"⁴

وهذا ما يسمى بقانون التداول والمداولة والاستبدال أو الإنشاء كما سماه ابن باديس إشارة إلى ما جاء في القرآن الكريم "وذكر إنشاء الأمم على أثر الهالكين في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾ (الأنبياء: الآية 11)⁵

والسبب الجوهرى في سقوط الدول والحضارات هو الترف وانتشار الظلم والفساد فيحق عليهم قانون وسنة التداول عليها والاستبدال لها، يقول ابن باديس (مشيراً -كمثال- إلى الأطوار الثلاثة التي مر بها بنو إسرائيل بعد التيه): "وإهلاكهم يكون بعد إسباغ النعمة وإقامة الحجة عليهم وتمكن الفساد فيهم وتكاثر الظلم منهم، فإهلاكهم هو نهاية الطور الثالث من أطوار الأمم الثلاثة. وإلى خاتمة الطور الثالث وعاقبته جاء البيان في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ (الإسراء: الآية 58)."⁶

3 - 5 سنة الابتلاء والمحنة:

الابتلاء والمحنة والفتنة سنة ربانية جارية يختبر ويمتحن فيها الله تعالى عباده بالخير والشر والسراء والضراء ليميز الخبيث من الطيب، ويبتلي أقواماً ليزكهم ويرفع درجاتهم عنده.

والابتلاء والفتنة والامتحان معنى واحد ذكره ابن باديس نقلاً عن لسان العرب: "قال في (لسان

¹ - المرجع السابق، ص 294

² - المرجع نفسه، ص 294

³ - ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: مقدمة ابن خلدون، ص 335، 336

⁴ - بن نبي، مالك: وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، ص 31.

⁵ - الطالبي، عمار: كتاب آثار ابن باديس، المرجع السابق، ص 295.

⁶ - المرجع نفسه، ص 295، 296.

العرب): الأزهري وغيره: جماع معنى الفتنة الابتلاء والامتحان والاختبار، وأصلها مأخوذ من قولك فتنت الفضة والذهب إذا أذبتهما بالنار لتمييز الرديء من الجيد. هـ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَحْسِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (العنكبوت: الآية 2)¹

ويبين ابن باديس أن هذه الفتن والابتلاءات سنة جارية يمتحن الله بها عباده جميعا على مختلف مراكزهم وأنواعهم وأقسامهم: الأنبياء والرسل وأمهم، الراعي والرعية، الأغنياء والفقراء، المرضى والأصحاء، كيف يكون حالهم مع هذه الابتلاءات والفتن، "لتظهر حقائقكم عند الامتحان. جعلنا الرسل يأكلون كما يأكل البشر ويتكسبون كما يتكسبون لمتحن العباد بهم فيظهر من يتبعهم بالإيمان واليقين لما معهم من الحق والكمال ويصبر على ما يلحقه في أتباعهم من الجهد والبلاء ممن يحتقرهم ويعرض عنهم لما يرى من بشريتهم، كما جعلنا الأمم فتنة لرسولها وامتحاناً لهم ليظهر صبرهم على ما يلاقون منهم من إذاية وشر، فتعلو درجاتهم ويضاعف أجرهم. وجعلنا الغني امتحاناً للفقير حتى يظهر صبره على حاله وكفه لعينه ويده عن شيء غيره، كما جعلنا الفقير امتحاناً للغني حتى يظهر صبره على القيام بواجبه نحوه، وجعلنا الصحيح فتنة للمريض حتى يظهر صبره على بلواه ورضاء بما أعطاه الله، كما جعلنا المريض فتنة للصحيح حتى يظهر صبره على القيام بواجبه نحوه من العطف عليه وعيادته ومواساته: وجعلنا الرعية فتنة للراعي حتى يظهر صبره على القيام بواجب رعايتها، كما جعلنا للراعي فتنة للرعية ليظهر صبرها على طاعته، وهكذا في جميع أقسام الناس".²

ثم يبين ابن باديس الحكمة من هذه السنة الربانية، ما الحكمة من ابتلاء واختبار الله لعباده؟ أليس هو أعلم بحالهم وما يكون منهم بعد الامتحان والاختبار؟ فيجيب على هذا التساؤل بقوله: "أن الله تعالى إنما يحاسب عباده على ما عملوا وكسبوه واكتسبوه بما عندهم من التمكن من الفعل والترك وما عندهم من الاختيار لا على ما علمه منهم قبل أن يعملوه، فلماذا يمتحنون لتظهر حقائقهم ويقع جزاؤهم على ما كسبت أيديهم باختيارهم، ولا حجة لهم في تقدم علمه تعالى بما يكون منهم، لأن تقدم العلم لم يكن ملجئاً لهم على أعمالهم، ففي هذا الامتحان قيام حجة الله على العاملين أمام أنفسهم وأمام الناس، كما فيه إظهار لحقيقتهم لأنفسهم ولغيرهم".³

هذه بعض معالم الوعي السنني في فكر عبد الحميد بن باديس الذي لم يكتف فيه بالجانب التنظيري بل عمل على نقله وإسقاطه على الواقع الاجتماعي في منهجه الإصلاحي والتغييري، وهو ما نتبين بعض تجلياته في المبحث الموالي.

4. تجليات تعامل ابن باديس مع السنن الإلهية وأعمالها في مشروعه الإصلاحي

لقد أدرك ابن باديس أن تفعيل وإعمال السنن الإلهية يتم وفق منهج سنني أهم معالمه تتمثل في فيما يلي :

1 - الوعي بالإطار المرجعي الذي يتمثل هنا في الثوابت المعصومة والقيم الأصلية التي تمثل التعاليم

¹ - المرجع السابق، ص 396.

² - المرجع نفسه، ص 398.

³ - المرجع نفسه، ص 398.

والأحكام الإلهية، حيث أدرك أنه "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"، ولقد جعل هذا القول الذي ينسب للإمام "مالك بن أنس" - رضي الله عنه - شعارا دائما لمجلة "الشهاب"، وبين أن هذا هو مبدؤه في الإصلاح الديني والدنيوي.

2 - فهم الواقع الإنساني المراد تغييره، في بعده الفطري والمعيش، فحاول أن يستوعب هذا الواقع بكل مكوناته ويعرف عنه كل صغيرة وكبيرة، حتى يتمكن من تنزيل القيم النظرية على هذا الواقع.

3 - فقه الإنجاز أو مباشرة التغيير أو تنزيل القيم والأحكام والتعاليم الدينية التي يؤمن بها على الواقع الاجتماعي، مع العمل على ضمان ذلك واستمراريته.

وفقه الإنجاز ومباشرة التغيير في الوعي السني الباديبي يبدأ ب:

4-1 سنة تغيير ما بالأنفس:

ففي أساس التغيير، وسنة ثابتة من السنن الإلهية مصداقا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ (الرعد: الآية 11) "فصلاح النفس هو صلاح الفرد، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع"،¹ فكان هدف ابن باديس من مشروعه الإصلاحي هو إعادة بناء الإنسان الرسالي الذي يتغير لكي يغير، يصلح لكي يصلح، يتحرر لكي يحرر، بدأ بالنفس من داخلها يحررها من أسرها، بتصحيح العقائد الزائفة والتصورات والأفكار الخاطئة المبنية على الأوهام والخرافات والأساطير... والسلوكيات الشائنة، لكي يتم التحرير العام، تحرير المجتمع وإصلاحه، و"المجتمع لا يصلح إلا إذا صلح الفرد، فإذا بنينا الفرد المسلم سيقع التغيير لا محالة، لأن أية عملية حسابية بسيطة توصل إلى الموضوعية القائلة: أن اقتناع أفراد المجتمع أو أغليتهم بالخط الذي تطرحه الجماعة سوف يحدد التغيير لا محالة، وإن هذه من النظريات الشائعة في الفكر التغييري عموما..."².

يذكر محمد البشير الإبراهيمي أن الطريقة التي اتفق عليها مع ابن باديس في اجتماعهم في المدينة "في تربية النشء هي: ألا نتوسع له في العلم، وإنما نربيّه على فكرة صحيحة ولو مع علم قليل، فتمت لنا هذه التجربة في الجيش الذي أعدناه من تلامذتنا"³.

لقد كان العقل الجزائري مشلولاً ومقيداً بالقيود العقدية المشوهة التي كانت تحكمه وتسيطر عليه، قيود تعبر عنها شعارات: "نأكل القوت وننتظر الموت"، "والاستعمار مكتوب"، "واستقلال الجزائر بالمكتوب"، "لسنا أحراراً في اختياراتنا"، "نحن مسيروا لا مخيروا"... الخ، شعارات رسختها في الأذهان الطرق الصوفية الزائفة ومن ورائها الاستعمار الفرنسي في خطته في الصراع الفكري في البلاد التي يحتلها.

فحرص ابن باديس على تغيير هذه الأفكار المميّنة لعقيدة المسلم، والنظرة الخاطئة إلى عقيدة القضاء والقدر التي شلت الفكر والحركة والتغيير، فعمل على إعطاء أكبر مجال للحرية العقدية وحرية الإرادة، فالله خلق الإنسان "...ووهبه العقل والإرادة الحرة، فكل إنسان يختار بعقله، وهو يعتمد على إرادته

¹ - المرجع السابق، ص 232

² - النفيسي عبد الله وآخرون: الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية، أوراق في النقد الذاتي، ص 376، 377.

³ - الإبراهيمي، أحمد طالب: آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ج 5، ص 280.

الحرّة التي لا يمكن أن يكابر أحد في وجودها لكي يختار ما يرضاه لنفسه وعلى حسب ما أداه إليه تفكيره...فليس لأحد أن يحتج بعد ذلك لسوء عمله وفساد قلبه بأن الله قضى عليه العذاب، فإن لله حجة بالغة على الناس، وحجة الله على الناس هي العقل الذي وهبهم إياه، وحرية الاختيار التي أنعم بها عليهم...¹

واهتم ابن باديس ببعث روح الأمل من جديد في نفس الجزائري وتحرير أفكاره من اليأس والقنوط وعقد النقص بأن يبعث فيه القلق الإيجابي الذي يجعله يتحرر ويحيا ليتحرك ويعمل ويغير، يقول ابن باديس: " الحياة حياتان: حياة الروح وحياة البدن، والحرية كذلك، وحياة الروح وحريةتها هما أصل حياة البدن وحريةته ... وإذا حررنا أرواحنا وعقولنا فقد حررنا كل شيء".²

وإذا تحرر الإنسان في عقيدته وصلحت تصورات وأفكاره انعكس ذلك على سلوكه وأخلاقه، فالعلاقة المتينة للفرد مع خالقه هي مصدر وأساس الأخلاق الفاضلة واستقامة الأعمال، حيث يبين ابن باديس أن زكاء النفوس واستقامة السلوك يكون بالعقيدة الحقّة، والتخلص من العقائد الفاسدة "...فإنه إذا شفيت الصدور من عقائد السوء ونزعات الشكوك واعتقدت الحق وارتبطت على اليقين، زكت النفوس واستقام سلوك الإنسان فردّه وجماعته، ورقى درجات الكمال ... لأن الأخلاق ناشئة عن العقائد ولأزمة لها ولأنهما كليهما - العقائد والأخلاق - لا تكمل النفس الإنسانية إلا بالشفاء فيهما ...".³

إن هذا التحرير للأنفس بتحرير وإصلاح العقائد والأفكار والسلوكيات كان الهدف منه كما ذكرنا سابقا تحرير المجتمع، فكان منهج ابن باديس السنني مبنيا أولا على سنة تغيير ما بالأنفس لأنها أساس ومنطلق التغيير، ليتحقق التغيير الشامل، ولا يتم ذلك إلا وفق سنة ربانية أخرى أدركها ابن باديس وعمل وفقها في مشروعه الإصلاحى، وهي:

4 - 2 سنة التدرج والمرحلية:

استوحى ابن باديس هذه السنة من منهج النبي ﷺ في الدعوة، فعند حديثه عن كيفية تبليغه صلى الله عليه وسلم لرسالته قال: " قد بلغ - ﷺ - رسالة ربه بالقول والعمل إلى آخر رفق من حياته، وكان تبليغه كما أمره ربه على درجات حسب التدرج الذي هو من سنة الله في خلقه وفي شرعه".⁴

وبالرجوع إلى المعطيات التاريخية للتغيير الاجتماعى الباديسى والذي امتد على مدار سبع وعشرين سنة تقريبا، أي من سنة 1913 إلى سنة 1940م، فإنه لم يكن على وتيرة واحدة، بل تنوع من مرحلة إلى أخرى، وما يستخلص من حياة ابن باديس الجهادية في العمل التغييرى يتبين أنه انتهج سنة التدرج والمرحلية، إدراكا لأهمية هذا السنة في استمرارية العمل التغييرى والتمكن من الوصول إلى الأهداف المنشودة.

ويمكن تقسيم المراحل التي مرّ بها التغيير الاجتماعى الباديسى إلى مرحلتين أساسيتين: مرحلة العمل الفردي، ومرحلة العمل الجماعي.

¹ - قاسم محمود: الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحى لحرب التحرير الجزائرية، ص104

² - ابن باديس عبد الحميد: عيد الحرية، مجلة الشهاب، قسنطينة، الجزائر، ج10م11، 1354هـ، 1935: ص ص547، 548

³ - الطالبي، عمار: كتاب آثار ابن باديس، مرجع سابق، مج1، ج1، ص329.

⁴ - المرجع نفسه، ج4، ص12.

أولاً: مرحلة العمل الفردي :

ويمكن تقسيمها هي الأخرى إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى : تمتد من سنة 1913 إلى سنة 1924، وتميزت بوضع ابن باديس للحجر الأساس في بناء النهضة الجزائرية وتحديد نقطة البداية في العمل التغييري، حيث انطلق من التعليم كأساس لتوعية القاعدة الشعبية للنهوض بها مستقبلاً حتى تحمل راية الحرية عن وعي وليس عن جهل، وهذا ما بينه ابن باديس لما التف نفر من الشباب المتحمس حوله سنة 1933م بنادي الترقى، "وطلبوا منه أن يرفع صوته قويا مدويا عاليا مطالباً باستقلال الجزائر وحريةها، فقال لهم رحمهم الله جميعاً: "وهل رأيتم أيها الأبناء إنساناً يقيم سقفاً دون أن يشيد الجدران؟" فقالوا: كلاً! ولا يمكن هذا. فقال لهم: "إن من أراد أن يبني داره فعليه أن يبني الأساس ويقم الجدران أولاً، ثم يشيد السقف على تلك الجدران، ومن أراد أن يبني شعباً ويقم أمة فإنه يبدأ من الأساس لا من السقف"¹.

وهكذا انطلق ابن باديس من الأساس في عمل هادئ صامت بعيداً عن مواجهة الاستعمار، ودون أن يحدث ما يلفت الأنظار إليه، يعلم الصغار والكبار والنساء والرجال مرتكزاً على تقويم الأخلاق وتنطير العقائد وتنوير الأفكار.

المرحلة الثانية : تمتد من سنة 1924م إلى سنة 1931م، وتعد هذه المرحلة إرهاصاً للعمل الجماعي، حيث بدأ ابن باديس يضع الخطوات الأولى للعمل المؤسسي، من حيث العزم على إنشاء جمعية أو مؤسسة تضم العلماء المسلمين الجزائريين، ويذكر في هذا الصدد الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي" أن ابن باديس زاره في مدينة "سطيف" سنة 1924م وأخبره "أنه عقد العزم على تأسيس جمعية باسم "الإخاء العلمي" يكون مركزها العام بمدينة قسنطينة ... تجمع شمل العلماء والطلبة وتوحد جهودهم وتقارب بين مناحيمهم في التعليم والتفكير ... ثم حدثت حوادث عطلت المشروع ..."²

وتميزت هذه المرحلة بإدراك ابن باديس لدور الصحافة والعمل الإعلامي عموماً في التغيير الاجتماعي فأنشأ ابن باديس جريدة "المنتقد" في جويلية من عام 1925م، والتي جعل شعارها "الحق فوق كل أحد والوطن قبل كل شيء"، ولم يصدر منها إلا ثمانية عشر عدداً، حتى أوقفتها السلطات الاستعمارية، فأصدر ابن باديس في العام نفسه جريدة "الشهاب" والتي تحولت بعد أربع سنوات إلى مجلة واستمرت في الصدور إلى أن أوقفها ابن باديس بعد نشوب الحرب العالمية الثانية عام 1939م.

¹ - خير الدين محمد: مذكرات، ج1، ص 384.

² - جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: سجل مؤتمر، (المنعقد بمركزها العام "نادي الترقى" بالجزائر العاصمة في جمادى الثانية 1354هـ، سبتمبر 1935م)، دار المعرفة، 2009، ص 41.

وانتهج ابن باديس في هذه المرحلة المرونة السياسية في التعامل مع الاستعمار، خاصة بعد اللهجة القوية والصريحة التي انطلق بها في تحرير مقالات جريدة المنتقد، والتي أدت إلى توقيفها ولما أنشأ الشهاب خفف من تلك اللهجة.

ثانيا: مرحلة العمل الجماعي :

وتمتد هذه المرحلة من سنة 1931م إلى عام 1940م، وتميزت هي الأخرى بمرحلتين مختلفتين، تظهر من خلال مواجهة ابن باديس للاستعمار الفرنسي وأعوانه:

المرحلة الأولى: تمتد من سنة 1931م إلى سنة 1936م، أي بتأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين (5ماي 1931) ودخول ابن باديس مجال العمل الجماعي، وإدراكه لأهميته في المواجهة في هذه المرحلة، بعد السنوات الطوال في العمل الفردي، وإن كان تفكيره في هذا العمل يرجع إلى سنوات من قبل، إلى عام 1913 عندما كان في الحجاز، قبل أن يرجع إلى الجزائر لخوض العمل الإصلاحي، حيث كان يتدارس ويدبر مع الشيخ "محمد البشير الإبراهيمي" الوسائل التي تنهض بها الجزائر والتي توصلها من خلالها إلى وضع الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين، التي لم تر النور حتى عام 1931.

ويؤكد ابن باديس أن من شروط النهوض بالمجتمع أن يبنى على العمل الجماعي والمؤسساتي، وليس أي عمل جماعي، بل يشترط فيه أن يكون مبنيا هو الآخر على التنظيم والتفكير والتدبر والتشاور والتأزر... يقول في هذا الشأن: "إنما ينهض المسلمون بمقتضيات إيمانهم بالله، ورسوله، إذا كانت لهم قوة، وإنما تكون لهم قوة إذا كانت لهم جماعة منظمة تفكر، وتدبر، وتشاور، وتتأزر وتنهض لجلب المصلحة ولدفع المضرة متساندة في العمل عن فكر وعزيمة".¹

ولقد واصل ابن باديس في هذه المرحلة منهجه في المداراة والمرونة السياسية، حيث لم يقع في فخ المواجهة المباشرة العدائية مع الإدارة الاستعمارية.

المرحلة الثانية: من العمل الجماعي تمتد من سنة 1936م إلى سنة 1940م تاريخ وفاة عبد الحميد بن باديس، ويمكن تسميتها بمرحلة "اليأس بعد الرجاء" كما يذكر ابن باديس²، خاصة بعد رفض فرنسا مطالب الجزائريين التي رفعوها للحكومة في مؤتمر 1936 في وفد قاده ابن باديس إلى باريس، وبعد فشل المؤتمر بين ابن باديس للشعب الجزائري أن حقوقه تنتزع ولا تعطى ولا توهب، ولن يدرك تلك الحقيقة حتى يعود إليه وعيه وينفض غبار الجهل والغفلة عن نفسه، فقد صرح قائلا: "لا تتغير السياسة الاستعمارية بالجزائر عن طريق وفود تذهب إلى فرنسا ... ولكن الشعب الجزائري هو الذي يستطيع أن يغير كل شيء، ومتى نفّض الشعب عن نفسه غبار الجهل والغفلة، وأدرك وجوب تسيير شؤونه بنفسه، وأخذ يضع كل شيء موضعه، لم يجد أين يضع الاستعمار إلا حيث توضع الأطمار البالية".³

¹ - الطالبي، عمار، كتاب آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج 1، ص 370.

² - المرجع نفسه، مج 2، ج 1، 369.

³ - العسلي بسام: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، ص 122.

وقد تميزت هذه المرحلة بتصريحات ابن باديس الجريئة والحادة في مواجهة الاستعمار، واستنهاض همم المجتمع، خاصة وأن جهوده الإصلاحية انتشرت في جميع أنحاء الوطن، وحمل أفكاره وأفكار جمعية العلماء غالبية الشعب الجزائري.

وغير شعار مجلة "الشهاب" من "الحق والعدل والمؤاخاة في إعطاء جميع الحقوق للذين قاموا بجميع الواجبات" إلى الشعار الجديد المتمثل في: "لا نعتد إلا على أنفسنا ونتكل على الله"، وبعد إعلان ابن باديس عن هذا التغيير في الشعار ختم قوله بلهجة شديدة ملؤها اليأس من السياسة الاستعمارية، وبعث الأمل بالمستقبل الخير في نفوس الجزائريين، حيث قال: "... ثم نحن من بعد ذلك سنحتفظ للمحسن بإحسانه وللمسيء بإساءته،

(و) الخير أبقي و إن طال الزمان به * والشر أخبث ما أوعيت من زاد.

وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.¹

ولقد رأى ابن باديس أن المنقلب الحقيقي للظالمين بعد اليأس منهم هو مواجهتهم بسلحهم، وسلاح اليأس هو الثورة، بل لقد كان يستعد لهذه الثورة ويعد لها العدة، فقد نقل الشيخ "أحمد حماني" تصريحاً لابن باديس عند اندلاع الحرب العالمية الثانية مما جاء فيه "لو استشاروني لأشرت عليهم بالصعود إلى جبال أوراس، وشن الثورة منها على الاستعمار، - ويضيف الشيخ حماني - ثم أخذ يستعد لتنفيذ ما صرح به، وقد سمعت من الشيخ محمد الصالح بن عتيق، أنه انفلت من الرقابة الاستعمارية المضروبة عليه "بقسنطينة"، وزار "الميلية" خفية، وسأله عن درجة استعداد الأمة فأجاب: إن رجال "الميلية" سيجدهم (رجال البارود) ودعاه إلى النزول فاعتذر، بأن الزيارة قصيرة، لا تسمع له بطول الإقامة"²

ولكن توفاه الله قبل أن يصل إلى هذا المبتغى وتركها أمانة فيمن جاء من بعده، خاصة من العدد الهائل من تلامذته الذين نشر فيهم الوعي السني، وعلمهم أن الحرية تؤخذ ولا توهب.

4 - 3 سنة الأخذ بالأسباب:

سنة التدرج والمراحل في حد ذاتها أعمال لأسباب التغيير والإصلاح، فابن باديس كان يؤمن بهذه السنة الربانية نظرياً وعملياً فيقول: "وعلينا أن نحصل من الأسباب ما يحصل لنا قوة العلم وقوة العمل لنكون أهلاً للدفاع عن الحق وحزبه، ومقيمين لسلطان الله في أرضه بالحق والعدل والإحسان. معتمدون - مع حصول تلك الأسباب - على الله وحده ومنتظرين منه الفرج واليسير".³

فكان عمله الإصلاحي وفق تخطيط دقيق ومنهج متين، كانت بدايته في الحجاز مع رفيق دربه الشيخ محمد البشير الإبراهيمي، إذ كانا يجتمعان كل ليلة على مدار ثلاثة أشهر من بعد صلاة العشاء إلى أن يؤذن المؤذن لصلاة الصبح، وهما يتناقشان ويتدارسان أوضاع الجزائر، وما يجب عمله من أجل

¹ - ابن باديس، عبد الحميد: نحن والواجهة الشعبية، مجلة الشهاب، مرجع سابق، ج9، مج 13، 1356هـ، 1937م. ص 406

² - زروقة عبد الرشيد: جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913-1940)، ص 163.

³ - الطالبي، عمار، كتاب آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج1، ص 323.

إصلاحها، وإنقاذها من حالتها المزرية العامة، ينقل إلينا إبراهيمي كيف تمت تلك اللقاءات بينهما وكانت تشكل بداية التخطيط للمشروع الإصلاحي والتغييري للمجتمع الجزائري " كانت هذه الأسمار المتواصلة كلها تديراً للوسائل التي تنهض بها الجزائر، ووضع البرامج المفصلة لتلك النهضة الشاملة التي كانت كلها صورياً ذهنية تتراءى في مخيلتنا، وصحبها من حسن النية وتوفيق الله ما حققها في الخارج بعد بضع عشرة سنة، وأشهد الله على أن تلك الليالي من سنة 1913 ميلادية هي التي وضعت فيها الأسس الأولى لجمعية العلماء المسلمين الجزائريين التي لم تبرز للوجود إلا في سنة 1931.¹

ولتحقيق هذه السنة الإلهية سنة الأخذ بالأسباب اتخذ ابن باديس عدة وسائل لتحقيق أهدافه بداية من التربية والتعليم، المحاضرات والدروس في المساجد، إنشاء المدارس، إنشاء النوادي العلمية، الكشف الإسلامية، الصحافة أهمها: (المنتقد، الشهاب، السنة النبوية المحمدية، الشريعة المحمدية، الصراط السوي، البصائر...)

4 - سنة الابتلاء والمحن:

لم يكن ابن باديس بدعا من المصلحين والدعاة على مر الزمن فقد تعرض لشتى أنواع الابتلاءات والمحن في نفسه وفي دعوته وعمله الإصلاحي، " وأي عامل صادق في عمله مخلص فيه لا يبتلى؟"² المنع من التعليم: فعند بداية التعليم في الجامع الكبير بقسنطينة عام 1913 حاول الاستعمار منعه بتحريض من يشوش عليه في دروسه ويطفئ عنه المصابيح، ويغلق في وجهه كتبه التي يعلم منها.

ثم تعرض لمحاولة تشويه صورته أمام الرأي العام، باتهامه من بعض أعدائه من الطرقية المتعاونة مع الإدارة الاستعمارية بأنه مارق عن الدين مخالف للجماعة وكانوا يطلقون عليه اسم "إبليس" بدلا من باديس، واستعانوا بأتباعهم من العوام الذين كانوا يوجهون إليه الشتائم البذيئة والاتهامات المغرضة عقب إلقاء خطبه ومواعظه.³

كما نعتوه مرة بأنه "عبد اوي" نسبة إلى الشيخ "محمد عبده" ومرة بأنه "وهايي نسبة إلى الإمام "محمد بن عبد الوهاب"، رغبة في تنفير الناس منه والخط منه، وقد تطرق ابن باديس إلى هذا الاتهام في مقاله المشهور: (عبد اويون ثم وهابيون ثم ماذا؟ لا ندري والله؟)⁴

ومن محاولات الاستعمار لتشويه صورة ابن باديس، والنيل من مصداقيته لدى الرأي العام، محاولة اغتيال الشيخ أحمد مرزوق بن سعيد الحبيباتي (1867-1936م) وهو أحد أئمة وفقهاء مدينة قسنطينة لاتهام ابن باديس بالتخطيط لهذه العملية، ويتسنى لهم إلقاء القبض عليه، لكن المحاولة باءت بالفشل.⁵ محاولة الاغتيال: ولما لم تفلح الأساليب السابقة في محالة الخط من ابن باديس وتشويهه لدى الرأي

¹ - إبراهيمي، أحمد طالب: آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، ج5، مرجع سابق، ص 278.

² - الطالبي عمار، كتاب آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج3، ص 562

³ - سلوادي حسن عبد الرحمن: عبد الحميد بن باديس مفسرا، ص178

⁴ - الطالبي عمار: كتاب آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج3، ص 27.

⁵ - إبراهيمي، أحمد طالب: آثار الإمام محمد البشير إبراهيمي، ج1، مرجع سابق، ص 35.

العام وصل بهم الحد إلى محاولة اغتياله والتي تعد من أخطر محاولات خصومه وأعدائه في القضاء عليه وعلى حركته الإصلاحية، ومدبروها هم بعض رجال الطرق الصوفية بتحريض من السلطات الاستعمارية - كما يذهب إلى ذلك العديد من المؤرخين - حيث كلف هؤلاء الطريقون جماعة من أتباعهم ومريديهم بتنفيذ محاولة الاغتيال هذه عام 1927م، ف "تربصوا له ذات ليلة في أحد أزقة مدينة قسنطينة وعندما كان راجعا إلى منزله بعد انتهائه من درس تفسير القرآن الكريم في الجامع الأخضر، خرج عليه أحدهم وضربه بعصا غليظة على رأسه ثم استل خنجرا كان مسلحا به وأراد طعنه به ولكن ابن باديس تمكن من القبض على الجاني واستغاث بالمارة فأنجدوه وقبضوا على هذا المجرم المأجور ... وقد حاولوا الفتك به ولكن ابن باديس نهاهم عن ذلك ثم عفا عنه بعد أن اتضحت له خيوط المؤامرة وعرف مدبريها وهم رجال الطرق الصوفية الذين تقف الإدارة الاستعمارية وراءهم"¹.

محاولة الإغراء والاحتواء: لما أسس ابن باديس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أدركت الإدارة الاستعمارية الخطر الذي أصبح يشكله ابن باديس على مصالحها بتأسيس هذه الجمعية، فحاولت القضاء على الجمعية بإغراء ابن باديس التخلي عن إدارتها لأنها تعلم أنه المحرك الرئيسي لها.

فاعتمدت في البداية بإغراء ابن باديس عن طريق أبيه في احتلال منصب ديني رفيع، لكن المحاولة فشلت، فلجأت الإدارة الاستعمارية إلى أسلوب آخر من أساليب المساومة تمثل في إنقاذ أسرة ابن باديس من إفلاس كبير بسبب ضائقة مالية حادة بتسليمها صكا مصرفيا يقضي كل ديون الأسرة والمقابل الذي يقدمه ابن باديس هو الاستقالة من جمعية العلماء.

لكن ابن باديس رفض رفضا قاطعا هذه المساومة وهذا الإغراء ورد بلمهجة حادة على الوالي الفرنسي قائلا: "أقتل أسيرك يا ميرانت، أما أنا فمانع جاري أقتل مصطفى بن باديس واقتل معه ابنه عبد الحميد واقض على أسرة ابن باديس، إن منحك الله هذه القدرة، ولكنك لن تصل أبدا إلى قتل جمعية العلماء بيدي، لأن جمعية العلماء ليست جمعية عبد الحميد بن باديس، وإنما هي جمعية الأمة الجزائرية المسلمة، وما أنا إلا واحد فيها أتصرف باسمها واسم الأمة كلها، ومحال أن أتصرف تصرفا أو أن أقف موقفا يكون فيه قتل الجمعية على يدي، أقول هذا وحسبي الله ونعم الوكيل"².

إن هذا الأسلوب في الرد يبين مدى تمسك ابن باديس بجمعية العلماء المسلمين، حيث يرى فيها الباب الذي يلج منه لتحقيق أهدافه الإصلاحية وتحرير الشعب الجزائري من نير الاستعمار الفرنسي.

ويقينه وثقته بالنصر من الله لمن ينصره وينصر دينه كسنة إلهية جعل ابن باديس يصبر ويثبت أمام كل تلك الابتلاءات والمحن ويستمر في دعوته وعمله الإصلاحي إلى آخر رمق في حياته.

وقد صرح بذلك علنا في رده على ما أصدره الاستعمار الفرنسي من قوانين جائرة لمنع التعليم العربي الحر وتعليم تعاليم الدين الإسلامي فقال: "وإننا على يقين من أن العاقبة - وإن طال البلاء - لنا وأن النصر سيكون حليفنا - لأننا قد عرفنا إيماننا، وشاهدنا عيانا، أن الإسلام والعربية قضى الله بخلودهما ولو اجتمع

¹ - تركي راجح: الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، ص ص 273، 274.

² - فضيل عبد القادر، رمضان محمد الصالح، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ص 128.

الخصوم كلهم على محاربتهم... ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾. فهل ينظرون إلا سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا¹ (فاطر: الآية 43) ..

هذه بعض المحطات التي بينا من خلالها المنهج السنني العملي الباديسي في أعمال السنن الإلهية في مشروعه الإصلاحى والتي تتم عن ذكائه وفطنته وإحاطته بسنن التغيير والإصلاح.

5- الخاتمة

تناولت هذه الدراسة "معالم الوعي السنني في المشروع الإصلاحى عند عبد الحميد بن باديس" مفهوم الوعي السنني وعلاقته بالإصلاح، ببيان مفهوم السنن من حيث اللغة والاصطلاح، ثم مفهوم الوعي السنني ومفهوم الإصلاح والعلاقة بينهما، وتناول المبحث الثاني مكانة البعد السنني في فكر ابن باديس، حيث بينت الدراسة مصادر الفكر السنني عند الشيخ، وبعض السنن الإلهية التي نظر لها في كتاباته مثل سنن التغيير والأسباب والمسببات، وسنة الأجل والتداول والاستبدال، وسنة الابتلاء والمحن.

أما المبحث الثالث، فتناول تجليات تعامل ابن باديس مع السنن الإلهية وأعمالها في مشروعه الإصلاحى، ببيان كيف تعامل مع سنة تغيير ما بالأنفس، وسنة الأخذ بالأسباب وسنة التدرج والمراحلية، وسنة الابتلاء والمحن التي تعرض لها وكيف كان موقفه منها.

لقد كان للسنن الإلهية ظهور متميز في الدعوة الباديسية تنظيرا وإعمالا وممارسة في المنهج الإصلاحى، وأن استحضار هذا المنهج الإصلاحى السنني عند ابن باديس قمين بإعادة بعثه وتفعيله في عمليات الإصلاح الحديثة للمجتمع والأمة، وأن فقه السنن الإلهية في الإصلاح والتغيير ضرورة منهجية لتوجيه وترشيد مشاريع الإصلاح وتقصيد فاعليتها الحضارية.

ولذلك نهيب بالباحثين أن يولوا أهمية للفقه السنني عند الإمام ابن باديس ورجال الإصلاح والتغيير، وأن يخصصوا لذلك رسائل جامعية أكاديمية، فإن هذا البعد في تراث هذا الرجل وغيره، من أجدر وأنفع الأبعاد بالدراسة وبذل الوقت والجهد فيها .

وإن إنتاج ونشر الوعي والثقافة السننية، والتمكين لها في نفوس الأجيال وحياتهم، هو ما تحتاجه نهضة المجتمع والأمة.

6- قائمة المراجع

- الطالبي، عمار: (1388هـ - 1968م) كتاب آثار ابن باديس، ط1، الجزائر، دار ومكتبة الشركة الجزائرية.
- ابن عاشور، محمد الطاهر: (1984م) تفسير التحرير والتنوير ج4، تونس، الدار التونسية للنشر.
- عيساوي عادل بن بوزيد: (2012م) فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، ط1، الدوحة، قطر، دار الكتب القطرية.
- 4 - عبده محمد: (2011م) الإسلام دين العلم والمدنية، (د ط) القاهرة، مصر، كلمات عربية للترجمة والنشر.
- كنعان، أحمد: (1990م) أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق (سلسلة كتاب الأمة)، دولة قطر، وزارة الأوقاف، دولة قطر.

¹ - الطالبي عمار: كتاب آثار ابن باديس، مرجع سابق، ج3، ص 245.

- العلواني، طه جابر: (1435هـ- 2014م)، إشكالية التعامل مع السنة النبوية، ط1، فرجينيا وم أ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- الجابري، محمد عابد: (2005م) في نقد الحاجة إلى الإصلاح، ط1، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية.
- رضا، محمد رشيد: (1366 هـ - 1947 م) تفسير المنار، ط2، مصر، مطبعة المنار.
- برغوث، الطيب: (1416هـ- 1996م) منهج النبي صلى الله عليه وسلم في حماية الدعوة والمحافظة على منجزاتها خلال الفترة المكية، ط1، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.
- حسنة، عمر عبيد: (1414هـ- 1994م) رؤية في منهجية التغيير، ط1، بيروت، لبنان، المكتب الإسلامي.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم: (1425 هـ - 2004م) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، المملكة العربية السعودية، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد: 1425هـ- 2004م، مقدمة ابن خلدون، ط1، دمشق، سوريا، دار يعرب.
- بن نبي، مالك: (1406هـ- 1986م) وجهة العالم الإسلامي، ترجمة عبد الصبور شاهين، الجزائر، دار الفكر.
- النفيسي عبد الله وآخرون: 1989م. الحركة الإسلامية رؤية مستقبلية، أوراق في النقد الذاتي، ط1، القاهرة، مصر، مكتبة مدبولي.
- الإبراهيمي، أحمد طالب: (1997م)، آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي، ط1، بيروت، لبنان، دار الغرب الإسلامي.
- قاسم محمود: (1979م)، الإمام عبد الحميد بن باديس الزعيم الروحي لحرب التحرير الجزائرية، ط2، القاهرة مصر، دار المعارف.
- خير الدين محمد: (د ت) مذكرات، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- جمعية العلماء المسلمين الجزائريين: (2009م)، سجل مؤتمر، (المنعقد بمركزها العام "نادي الترقى" بالجزائر العاصمة في جمادى الثانية 1354هـ، سبتمبر 1935م)، الجزائر، دار المعرفة.
- العسلي بسام: (1406هـ، 1986م) عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، ط2، بيروت لبنان دار النفائس.
- زروقة عبد الرشيد: (1420هـ، 1999م)، جهاد ابن باديس ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر (1913-1940)، ط1، بيروت لبنان، دار الشهاب.
- سلوادي حسن عبد الرحمن: (1988م): عبد الحميد بن باديس مفسرا، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب.
- تركي راجح: (1394هـ، 1974م)، الشيخ عبد الحميد بن باديس فلسفته وجهوده في التربية والتعليم، ط2، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع.
- فضيل عبد القادر، رمضان محمد الصالح، (1998م)، إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، ط1، الجزائر، دار الأمة.
- ابن باديس، عبد الحميد: (1354هـ- 1935م)، عيد الحرية، مجلة الشهاب (مجلة إسلامية جزائرية- شهرية- أنشئت سنة 1343هـ) قسنطينة، الجزائر، ج10م11، ص ص547، 548.
- ابن باديس، عبد الحميد: (1356هـ، 1937م). نحن والواجهة الشعبية، مجلة الشهاب، مج 13، ج9، ص 406.
- المرتضى، محمد: (جانفي 2020) نظرا البعد السني في مشروع إصلاح التعليم عند ابن العربي المعافري، مجلة حقول معرفية (مجلة علمية دولية محكمة تصدر عن كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بجامعة زيان عاشور بالجلفة-الجزائر) مج1، ع01، ص1-16.
- برغوث، عبد العزيز: (1428 هـ - 2007 م)، ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية، مجلة إسلامية المعرفة، السنة13، العدد 49، ص33.
- كهوس، رشيد: (1438هـ- 2016م)، السنن الإلهية الكونية والاجتماعية لطائف وبصائر، مجلة تدبر (مجلة علمية دورية محكمة) الرياض، السعودية، ع1، س1، ص 171.
- برغوث، الطيب: (7-8-9 محرم 1434هـ/ 22-23-24 نوفمبر 2012م). مقدمة في المنظور السني لدراسة السيرة

- النبوية، بحوث المؤتمر العالمي الأول للباحثين في السيرة النبوية في موضوع: جهود الأمة في خدمة السيرة النبوية، تنظيم مؤسسة البحوث والدراسات العلمية (مبدع) بمدينة فاس المغربية.
- حامد، التيجاني عبد القادر: (1432هـ-2011م)، الإصلاح في القرآن: استكشاف المفهوم، وبناء النظرية، مجلة إسلامية المعرفة، س17، ع66، ص13.
- الأنباري، أبو بكر محمد بن القاسم: (1989م) الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق: حاتم صالح الضامن، ج2، ط2، بغداد، العراق، دار الشؤون الثقافية العامة
- ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن مكرم: (1419 هـ- 1999م)، لسان العرب ج6، ط3، بيروت، دار إحياء التراث العربي.
- الزبيدي، محمد مرتضى الحسني، (1421هـ-2001م)، تاج العروس، تحقيق مصطفى حجازي، ج35، ط1، الكويت، مطبعة دولة الكويت.
- ابن فارس، أبو الحسن أحمد: (1399 هـ- 1979م)، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام محمد هارون، ج3، بيروت، لبنان، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
- الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد: (1421هـ-2001م) تهذيب اللغة، تحقيق محمد عوض مرعب، ج12، ط1، بيروت لبنان، دار إحياء التراث العربي.
- الرازي محمد بن أبي بكر: (1990م)، مختار الصحاح، ط4، عين مليلة، الجزائر، دار الهدى للطباعة والنشر.
- الفيومي أحمد بن محمد بن علي المقرئ: (1987م) المصباح المنير، لبنان، مكتبة لبنان.